

مناهل العرفان في علوم القرآن

الشبهة العاشرة يقولون إن إعجاز القرآن للعرب لا يدل على أن القرآن كلام الله . بل هو كلام محمد نسبة إلى ربه ليستمد قدسيته من هذه النسبة . وإعجازه جاء من ناحية أن محمداً كان الفرد الكامل في بيانه بين قومه لذلك جاء قرآنه الفرد الكامل أيضاً بين ما جاء به قومه ولم يستطيعوا لهذا الاعتبار وحده أن يأتوا بمثله شأن الرجل الفذ بين أقرانه في كل عصر . ويجب على هذه الشبهة بأجوبة خمسة .

أولها أن كل من أوتي حظاً من حس البيان وذوق البلاغة يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوي فرقا كبيراً يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق . وها هما القرآن والحديث النبوي لا يزالان قائمين بيننا يناديان الناس بهذا الفارق البعيد إن كان لهم إحساس في البيان وذوق في الكلام . ولو كان لهذه الشبهة شيء من الوجاهة لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخالص الذين شافهم القرآن لأنهم كانوا أحرص على تعجيز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة . لكنهم ما قالوا هذا . بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوه إيقاناً منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء . وهكذا من ذاق عرف ومن حرم انحرف . وكم من عائب قولا صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم .

الجواب الثاني أن القرآن لم يأت الناس من الخلف بل جاءهم من أوسع الأبواب ودخل عليهم من طريق العرب الخالص ذوي اللسان والبيان . وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام تلك الصناعة البيانية الفائقة التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم حتى صارت موضع تنافسهم وسبقهم وموضوع فخرهم وفوقهم .

شأن معجزات الله تعالى لم تأت الناس إلا من الناحية المفهومة لهم كل الفهم وذلك ليظهر أمر الله واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض ولا شبهة ولا شكوك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً 4 النساء 165 .

ومن هنا نعلم والتاريخ يشهد أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد كما يقول أولئك الملاحدة

لأمكن هؤلاء العرب البارزين في البيان أن يعرفوا أنه كلامه بما أتوا من ملكة النقد وما وهبوا من نباهة الحس والذوق ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطا قريبا إن لم يمكنهم مجاراته شوطا بعيدا .

لا سيما أن القرآن قد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن أتوا بسورة من مثل أقصر سورة أي بمثل ثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز . وأنت خبير بأن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان